قضايا في طريق دراسات الحديث الشريف والسنة النبوية

بقلم
الأستاذ الدكتور فاروق حمادة
أستاذ السنة وعلومها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية،
جامعة محمد الخامس ـ الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي حفظ لنا الكتاب، وهيأ لذلك كل الأسباب، من حفاظ وكتبة وطلاب، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله المؤيد بفصل الخطاب، صاحب الآيات الباهرة الظاهرة لأولي النهى والألباب.

وعلى آله الأطهار الأحباب، وصحابته البررة الكرام خير الأصحاب، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يقوم الناس للحشر والحساب.

أما بعد: فقد سرت السنة النبوية في الأمة الإسلامية من عهد النبي ﷺ سريان الروح في الجسم، والحياة في الكائنات، فلم تنفك عن الأمة لحظة، ولن تنفك عنها أبدا، وذلك بصون الله تعالى للكتاب العزيز ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[1] وصيانتها تبعا له، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، وبهما يكون كمال الدين الذي هو حجة على العالمين، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، وخطابه يتناول الحاضرين والآتين إلى أن يجمع الشمس والقمر.وقد أكد الحق سبحانه وتعالى أن كلامه وحي مصون عن العبث والدخل، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ

(١) الحجر ٩.

(٢) النحل ٤٤.

عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[1].

وبهذا صح أن كلام رسول الله ﷺ كله في الدين وحي من عند الله عزَّ وجلَّ، لا شك في ذلك.

ولا خلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة في أن كل وحي نزل من عند الله تعالى فهو ذكر منزل، فالوحي كله محفوظ بحفظ الله تعالى له بيقين، وكل ما تكفل الله بحفظه فمضمون ألاّ يضيع منه، وألاّ يحرف منه شيء أبداً تحريفا لا يأتي البيان ببطلانه، إذ لو جاز غير ذلك لكان كلام الله تعالى كذباً، وضمانه خائسا، وهذا لا يخطر ببال ذي مسكة عقل[2].

وقد توالت عبر الحقب كتائب العلماء لتثبيت السنة مع الكتاب، ونفي الزغل والدغل عنهما، وبقيت السنة نقية حاضرة في الضمائر والقلوب، والأفكار والعقول، محبة ورواية وتطبيقا، محبة في البحث عنها، والتفاني في نشرها والدفاع عنها، وتطبيقا في حلقات الدروس والفتوى والاستنباط والتأليف والتصنيف، في كل عصر بما يناسبه ويلائمه، حتى وصلتنا بأسانيدها الوثيقة، وتصانيفها الشمولية والعميقة.

- ١ -

وكان للسنة نهضة قويّة بدءاً من الربع الأخير في القرن الرابع عشر الهجري وما بعده، أي منتصف القرن العشرين الميلادي وإلى يومنا هذا، أخذت مظاهر عديدة وكسبت ميادين جديدة، وقد عرضنا لتطور دراسة السنة عبر العصور في بحث قائم بذاته متداول، ونلخص مظاهر القوة والانبعاث للسنة في العصور الحاضرة بإيجاز كالتالي:

---

(١) النجم: ٣ ـ ٤.

(٢) انظر فصلا مهماً في الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الأندلسي ١/١٢٠ وما بعدها.

١- الكتب: فقد نشر من كتب السنة الكثير، ومن مختلف العصور بدءاً من القرن الثاني كموطأ الإمام مالك (ت **١٧٩** هـ)، ومسند الطيالسي (ت **٢٠٤**هـ)، وسنن الشافعي(ت **٢٠٤**هـ) التي أخذت من كتبه، وقد صدر في هذا الباب أمهات كتب السنة في جميع شعبها: النصوص والرجال، والعلل، والمصطلح، وتاريخ السنة والتصحيح والتضعيف والتخريج... ، وفي هذا الباب يمكنني القول: **إن مصادر السنة لم يبق منها في حيز المخطوط إلا النزر اليسير، وبهذا تجمعت كتب السنة بين يدي الباحثين والدارسين، ويمكن لمن يريد الانصاف أن يأخذ صورة حقيقية عن السنة النبوية ووصولها إلينا، وبذلك تمت حجة البلاغ على هذا العصر ولأمد طويل**، ليحيا من حيا عن بينة، ويهلك من يهلك عن بينة، وهناك في هذا المضمار كتب كثيرة صدرت في تقريب السنة وبسط أنوارها من منطلقات عديدة بل وتوجهات عديدة، فصدر العديد من الكتب في تاريخها، وعلومها، وأعلامها- رجالا ونساءً- وترتيب كتبها واختصارها وفهرستها، وتثبيت حجيتها، ودفع الشبه عنها، وما يستنبط من فقهها، وإعجازها الأدبي والعلمي والكوني والاجتماعي،والحضاري... إلخ، وهي جهود بارزة وأعمال جليلة، أثاب الله أصحابها ومن أسهم فيها بوجه من الوجوه....

٢- وقد دخلت السنة النبوية في أدق التطورات (التكنولوجيا) العلمية واستفادت منها، فصدرت كتبها على أقراص مدمجة ضمت كتبها وفنونها، وتنافس كثير من التجار في ذلك، وهذا يدل على أن السنة النبوية تساوق الزمن، وتسري في كيان الأمة، وتحتل الصدارة في العناية والرعاية والتجدد، وتؤكد حفظ الله تعالى لها، واستمرارها مع الزمن كما هي.

٣ - نشأت معاهد للبحث في السنة النبوية وعلومها، وكليات جامعية أكاديمية، تضم نخبة من المتخصصين في السنة وعلومها، وتبث معارفها إشعاعها وهديها في ضمائر الأجيال المتلاحقة، وتحملها هذه الأمانة كما كان السلف الصالح يفعلون، إذ كان عمر بن الخطاب وأضرابه من الصحابة الكرام والسلف الصالح يقولون للناشئة: «تفقهوا قبل أن تسوَّدوا»، وقال أبو

عبد الله البخاري: وبعد أن تسوّدوا[1]. وهذا نوع آخر يؤكد على استمرار الحفظ والصيانة...

وهنا يحق لكل واع منصف أن يقول: إن الخلافات والردود والمناقشات بين المتخصصين في السنة النبوية ليست ظاهرة سيئة، بل هي ظاهرة محمودة تظهر الحقائق، وتكشف الزيوف، وترد الغواة وستبقى، وهذا ما يؤكد أن السنة كانت على الدوام نقية صافية لا يستطيع أحد أن يكذب في السنة، أو يدلس، أو يغير أو يبدل أو يزيد فيها، أو ينقص منها؛ لأن هذه الجهود الحثيثة، والعقول الكثيرة المبثوثة في الأرض كلها يستحيل كل الاستحالة أن تتفق على الخطأ أو الزور أو البهتان، وكذلك كان الأمر من أيام المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة.

٤ ـ برزت في المعاهد والكليات دراسات وأطروحات تناولت السنة النبوية من جوانبها الكثيرة، فكانت عطاءً محموداً، ورواقاً ممدوداً تستظل به الأمة في كثير من محطات حياتها ومسيرتها، وقد كانت هذه الدراسات، أو بعضها سدا قويا في وجه الوضاعين الجدد، وأعداء السنة النبوية المعاصرين، فأطفأت كثيرا من آرائهم وشبههم، وتخرصاتهم جعلتها أثرا بعد عين، أو ضيقت مسالكها، وقلّصت من أتباعها والمقبلين عليها، وكفأت كثيرا منهم إلى جحورهم.

٥ ـ لم تتأخر السنة النبوية بما قيضه الله عزَّ وجلَّ لها من رجال وأبطال عن فتح مواقع على الشبكة المعلوماتية (الإنترنيت) تتبنى هذه المواقع قضاياها وأخبارها، وتضع على بساط البحث أفكارها، وتعرف بما صدر من كتبها... وبتعدد هذه المواقع وكثرتها تنزاح رقعة الشر، وتتقلص رقعة أعداء السنة النبوية، ويبدو لي والله أعلم، أن هناك عدداً غير قليل من المواقع[2]. وهذا أمر مفيد، وعمل سديد إن شاء الله.

---

(١) علقه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الاعتباط في العلم والحكمة ١/١٦٥.

(٢) لم يتسن لي الاطلاع إلا على عدد قليل من مواقع متخصصة.

- ٢ -

ومع مظاهر القوة والانبعاث للسنة النبوية هذه وغيرها، فإن هناك في عصرنا الحاضر جوانب ضعف لا تزال تؤثر في مسيرتها، وتعيق انتشارها والاهتداء بسناها، ويمكن تصنيفها بإيجاز كالتالي:

١ - العبث في إخراج كتبها ومصادرها، فلا زالت هناك أيدٍ لا تنشر كتب السنة إيمانا بها أو حبا في صاحبها عليه الصلاة والسلام، بل تجارة رابحة، وسلعة نافقة، ويبدأ هذا بمن يتصدون للتحقيق ولا يعرفونه، أو لإخراج النص ولا يفهمونه، أو العمل في كتاب يشوهونه أو يحرفونه[١].

٢ - نجد عددا من الناشرين يطبعون كتبا سبق طبعها بإشراف باحثين متخصصين، فيزورون ويبترون، ويشوهون ويخرجون الكتاب، بل الكتب محرفة مشوشة، كل ذلك لأن الكتاب مرغوب، وعند الباحثين والطلبة مطلوب، ولو رحنا نتقصى هذا الباب لطال بنا الكلام، وخرجنا إلى ميدان آخر، ويمكنني أن أضيف في هذا الأمر، أن بعض الكتب تطبع طبعات متعددة بأسماء محققين متعددين، ولا يبدو كبير فرق بين هذه الطبعات... إن هناك عبثا يجب أن ينتبه له الباحثون المخلصون، ويعملون على محاربته، ووقف مده، وهو خطر من نواح كثيرة.

٣ - لا تزال الحملات التشكيكية، والأفكار العدائية تتسلل إلى عقول كثير من المسلمين وغير المسلمين فيما يتعلق بالسنة النبوية، في تدوينها، ومناهجها، ومصنفاتها، وأعلامها، بل الصحابة الذين عاشوها وحملوها...

وقد مرَّت عليها فترات همدت فيها وخمدت، ولكنها في السنين الأخيرة انبعثت من جديد، بل قويت وتبنتها في بلاد المسلمين جهات عديدة من علمانية وغير علمانية باسم البحث العلمي، وغير ذلك من الأسماء،

---

(١) انظر أنموذجاً مصغراً لهؤلاء في كتابنا منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفا وتحقيقا ط دار القلم بدمشق.

والحق أن لهذه الحملات قوة كبيرة، وتأثيرا لا يستهان به، في تيار الحياة، ومسيرة السنة.

٤ - هناك قصور واضح في تغطية الساحة الإسلامية، بل العالمية بأبحاث ودراسات السنة النبوية، والتعريف بها، وإثبات صلاحيتها، وضرورة الأخذ بها. . .

فمؤتمراتها محدودة، وندواتها - فيما أعلم- نادرة، والمجلات المتخصصة قليلة، ويبدو لي والله أعلم أن هناك تراجعا في التصنيف المقصور على السنة، والذب عن حماها، وذلك حسب تقديري لأمور عديدة ليس هذا مكان تفصيلها.

ومع كل ما تقدم فإن السنة النبوية ستمضي بقدر الله وقدرته حجة على العالمين، وميزاناً عدلا بين العادلين والظالمين من الباحثين والمتعلمين، ومن يتول عن نهج السنة المشرفة فالله يهيئ غيره لتبقى الراية عالية، والمنارة هادية، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾.

وإيماناً مني بأن الراية ستبقى عالية، والحجة ماضية، فإن أمام دراسات السنة النبوية في العقود القادمة ميادين وآفاقاً أحق بالسبق من غيرها، وأنفع -حسب رؤيتي- للناس في طرقها، وذلك في واقع المعرفة البشرية التي نحن فيها، وزخم الحياة التي نحياها، وسأحاول أن أبين أهم هذه الميادين والآفاق.

- ٣ -

قضايا دراسات السنة النبوية:

بناء على رسوخ السنة النبوية في العقول والقلوب، واستمرارها مصونة محفوظة عبر الحقب والقرون، وما تكفل الله تعالى بحفظ منه، لتقوم حجته على العالمين فسيهيأ للسنة دارسين يحملونها، وحماة يذودون عنها، وأعلاما

ينشرون رايتها، وعامة يتلقونها ويلوذون بأهلها، وسادة يرعون القائمين عليها...

وكم هو جميل ومهم أن تجتمع نخبة من محبي السنة ودارسيها، ممن قطعوا حياتهم أو جلها لخدمتها والقبس منها، ليقفوا وقفة تأمل وتقويم لما أنجز ولما يروج، وما هي الحاجة العاجلة والآجلة لدراسات السنة ونوعيتها...

ومن هذا المنطلق لابد لي من الإسهام بشيء من هذا أداءً للأمانة ونصحاً للأمة، ولنفسي وإخواني الدارسين في هذا الميدان، مؤكدا على نوعية خاصة من الدراسات الأكاديمية العالية التي تتوفر فيها شروط البحث العلمي الرصين، المؤثر، مضمونا ومنهجاً، وصياغة وغاية، بعيداً عن كتابات ركيكة، أو ضعيفة هزيلة لتعلي ضجيجا (أيديولوجيا)، أو ترفع سمعة، أو تروج تجارة، تسيء لأهل هذا العلم الشريف.

وتسير الدراسات الجادة فيما يحتاجه الواقع العلمي الاجتماعي المعاصر، ونرى أن ذلك يكون في عدة شعب:

١- أ- إبراز مناهج السنة التي حفظت لنا هذه النصوص الشريفة، وميزت علوم هذه الأمة المنيفة عن غيرها من الأمم، فصانتها من الزغل، وردت عنها العاديات والدغل، وميزت بين ما هو حديث ثابت، أو ما هو قول مردود لعاثر جهول، أو طامع يحب التزلف والوصول...

إن إبراز المناهج من خلال نظريات عامة، أو رؤية لأعلام هذا العلم، أو كتب مخصوصة لها الشأن - وهي كثيرة جداً بحمد الله - أو عصور، لها صدى ورنين في العصور الأخرى، وخاصة القرون الأربعة الأولى، أو محطات هامة بعد هذه القرون، مع جمع المتفرقات والتأليف بين ما يمكن أن يعتبره الغر الحدث من المتناقضات، وشرحها والتعريف بها في إطار رؤية شمولية أو نظريات، ستقطع الطريق على حملات التشكيك التي لا تزال مستمرة في دوائر البحث المتحيزة المتحاملة الحاقدة، وهي قائمة

مستمرة يشتد ساعدها حينا، ويضعف أحيانا أخرى، وأراه الآن في تنامٍ وتصاعد لظروف معلومة عند الفطناء النبهاء.

ولا يخفى على أهل العلم المنصفين خصوصا باحثي السنة الدراسين أن عظمة المنهج الحديثي هو الذي أعطى كتبا عصية على الذوبان، ومصنفات تزداد رسوخا على مر الزمان.

فمن لم يعرف هذا المنهج لا يستطيع أن يميز بين قدر صحيح البخاري ومسلم، والسنن والمسانيد، وبين غيرها من مؤلفات الأسمار، وتخيلات قطاع طرق المعرفة الشطار..

ولهذا فالحديث عن المنهج ومسالكه، في كلياته وجزئياته، في تأصيله النظري، وتطبيقه الواقعي، يكشف الحقائق التي لا يعرفها الكثيرون، ويجازف بعضهم فينفيها جملة من الوجود؛ (لأن الناس أعداء ما جهلوا).

وإني لأتساءل كم دراسة قامت حول مناهج السنة في عهد التابعين؟! وقبلهم عن السنة وتلقيها ومناهجها في حلقات الصحابة المرضيين؟! إنها دراسات معدودة جداً فيما أعلم، فلو كثرت ونمت، لكان من أنفع وأهم ما يقدم للأمة لتطمئن إلى سنة نبيها، وأعظم ما يطفئ شرر المغرضين والمتحاملين والحاقدين، وإن المنهج الحديثي حقيق أن يكون حاضرا ماثلا في كل ميدان لتأخذ المعرفة النظرية، بل التجريبية طريقها الصحيح...

أجل لقد كان هناك دراسات في هذا الميدان، ويبدو لي والله أعلم أنها ركزت على جانب الدفاع في بحث جزئيات معينة، كالتي تتعلق بالمتون، أو بعض مقارنات بين جزئيات من الأسانيد، والمناهج الغربية، وهي قليلة بالقياس إلى ما يجب أن يكون في كتب معدودات، وتتوارد على أمثلة ومصادر قليلة محدودة، فكيف وقد طبع من كتب السنة البحور والأمهات، والمجاميع الكبرى والموسوعات، من القرون الأولى والمتأخرات، **فالذي نراه أن يكون هناك بحوث تظهر كيفية البناء للمنهج الحديثي كما علا واستطال يوما بعد يوم من العهد النبوي الأنور إلى أن استوى شامخا في منتصف القرن الثاني، له حلقاته الواسعة، وأعلامه**

الشامخة، ومصطلحاته الدقيقة، ومصادره المدونة، إلى أن طبق في مصنفات قائمة في القرن الثالث.

وإذا كنا لا نزال نسمع الغمز واللمز، والطعن والنبز في أرفع الصحابة رواية، وأعظمهم في السنة أثرا، ويروج ذلك فيها كتب تطبع وتشترى، فوالله ما هذا إلا دليل على جهل هذه الأمة بمقدار ما تروج فيه هذه الكتب، وضعف أهل الحديث والسنة بقدر ما يتركون الساحة لهذا العبث أن يروح ويغدو.

إن هناك حاجة ملحة وسريعة لدرس رواية المكثرين السبعة أو العشرة من الصحابة دراسة منهجية مقارنة من جهات شتى، ومتسلسلة إلى أن دخلت الكتب المنقولة عن أصحابها بالتواتر، معروفة عند الأمة باليقين، وأن تتوسع هذه الدراسات، وتعمم نتائجها على أوسع نطاق وأبعد مدى، وسيكون بذلك منعطف جديد للدراسات الحديثية الآتية بعدها بإذن الله تعالى، وكذلك دراسة روايات المكثرين من التابعين، وخاصة الذين تعرضوا للطعن والتجريح كالزهري وأمثاله، ويكثر حتى تصبح نتائجها مشهورة مذكورة تقطع دابر كل معاند ومشكك..[1].

وإني لأتساءل على سبيل المثال كم دراسة بين يدي الباحثين والدارسين الأكاديميين والمثقفين حول الحديث الموضوع وتمييزه من الصحيح وغيره، وتتبع العلماء للوضاعين الكذابين والأساليب العلمية الدقيقة لرصد الموضوعات أحاديث وكلمات؟! ... إنها قليلة جداً بالنسبة لخطورة هذه الفكرة وتأثيرها على المسلمين في جميع طبقاتهم واهتماماتهم وتوجهاتهم، ولهذا فالحديث عن ضبط السنة من مصدرها، والكشف عن بيان مسالكها، واستمرارها والإعلان بالمناهج المتفردة لأعمالهم فيها، من أجلِّ ما يخدم مقدسات هذه الأمة، ويصون وحدتها الفكرية، ويطوي سراب التيه والعبثية، ويطمئن القلوب والأفكار إلى سلامة عقائد وعبادات ومعاملات

---

(١) وقد رأيت ذكر دراسة عن أبي هريرة رضي الله عنه من خلال مروياته، ولكن تعدد الدراسات تعمق القضية، وتزيد من إيضاح الحقيقة.

وأخلاق هذه الأمة .**وكلما كثرت الدراسات في هذا الباب، كانت أشبه ما يكون بمساقط ضوء من جوانب كثيرة تنير ساحة السنة النبوية لكل الناظرين كيفما كانت مواقعهم أو ثقافاتهم**. . .

ب ـ إن مناهج السنة النبوية قد أفرزت مصطلحات خاصة تمثل شبكة معرفية متكاملة، لها دلالات دقيقة هي الناطق الفصيح، والمقول الصحيح لهذه المناهج، فدراستها في شبكتها المتكاملة، إسناداً ومتناً، وتاريخاً وتطوراً، وتطبيقاً وغاية، وشرحاً وتفصيلاً، ونشر ذلك في الأمة بشتى أنواع النشر والتبليغ، حتى تروج على الألسنة، وتظهر أنوارها بصرير الأقلام المتمكنة، وتغدو محور حلقات الدرس المختلفة.

وكم في هذا الميدان من متسع!! وكم له من أثر بناء وعاقبة محمودة تجعل لعلماء السنة والحديث وأعلامه هيبة في النفوس، لقاء جهودهم الزاخرة، وأعمالهم المباركة الطاهرة، المتواترة التي نحتت هذه المصطلحات خلال عقود متطاولة من السنين بل قرون طويلة من رحلات الراحلين، لوصل الأسانيد بالمسندين، حتى تبلغ منتهاها بسيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابته أجمعين.

إن هذه المصطلحات الحديثية هي مفاتيح هذه المناهج وعنوانها، ونشر مفاهيمها يجعل الناس يدركون ما تحتها من معان صانت السنة، وحفظت الحديث من كل ما يمكن أن يخطر على بال البشر من فتوق العبث والخطر.

وإن أهم ما يمكن التركيز عليه والاعتناء به ليس المصطلح الحديثي في القرون المتأخرة بل في نشأته الأولى، في القرن الأول وتطوره بعد ذلك حتى اكتماله.

وإننا لنلاحظ إلى ساعتنا هذه أن كثيرا ممن يعدون من أهل العلم والثقافة، بل من المتخصصين في الدراسات الشرعية الإسلامية لا يميزون بين نشأة المصطلحات الحديثية وتطبيقها واستعمالها، وبين تدوينها وجمعها في كتب خاصة، وتلقينها مادةً قائمة بذاتها، وعلماً متفرداً بين العلوم، وهذا

يسبب كثيرا من الخبط والخلط، الذي سمح لكتب تتداول منذ سبعين عاما ويزيد، وهي تقرر أن السنة والسيرة النبوية دونت أول كتبها بعد قرنين من عصر النبي محمد ﷺ دسَّت أثناءها في سيرته وتعاليمه إسرائيليات كثيرة، ووضعت أثناءها ألوف الأحاديث المكذوبة... هذه الحقيقة[1] التي يرونها ويعتقدونها، عندهم وفي نظرهم وسعيهم.

ولا يزال كتاب أبو رية: أضواء على السنة المحمدية، مرجعا معتمدا لدى كثير من الذين يتحاملون على الإسلام، بل إنه لقوة الدعاية له أثر في عدد غير قليل من أصحاب الدراسات الإسلامية الذين يقومون بتدريسها وتلقينها للأجيال، فيأخذون من كلامه وآرائه، ومفترياته ويغلفونها بأساليب أخرى، ويقدمونها على أنها أبحاث رصينة، وأعمال مبتكرة، وآراء ناضجة تستحق الجوائز والترقيات؟!!

إن الكشف عن نشأة المصطلح الحديثي وتداوله في حلقات الدرس من القرن الأول والثاني، وبناء المؤلفات على ضوئه وهديه، وتحديد معانيه ودلالاته مفيد جداً للدارسين في السنة النبوية أولا ولغيرهم ثانيا، وللأمة كلها في مسيرتها المعرفية، وبنائها الفكري.

إننا لا نزال نجد الجدل محتدما بين دارسي السنة حول عدد من المصطلحات، كالمجهول والمنكر مثلا، وهذا يدل على أن البحث العلمي في هذه القضايا لم يكتمل في تحديد المصطلحات ودلالتها، وهذا له آثار تبدأ في التصحيح والتضعيف، وتنتهي بناء عليه في التحليل والتحريم، ويستفيد من هذا كل متصيد في الماء العكر طعناً في السنة وتحللا من الدين...

إن هناك قضايا عديدة في المصطلح الحديثي تستحق كثيرا من الجهود

---

(١) انظر حياة محمد، لمحمد حسين هيكل ص ٢١، ولا تزال طبعات هذا الكتاب وأمثاله تتداول في شرق الأرض وغربها، والغريب أنني أجد أثرها وصداها في أوساط المثقفين على تعدد اختصاصاتهم، ويؤمنون بذلك إيمانا شديدا مما يمهد الطريق للعلمانية الحديثة القوية...

والتأمل والبحث، من الذين أقامهم الله لهذا العلم...

٢- عقد الصلة بين السنة والواقع الذي نحياه، وقد حلَّت فيه مفاهيم جديدة، وسلوك طارئ، وتغيرات مؤثرة، وذلك في جوانب عديدة آخذ منها اثنين تذكيراً:

١- تنقيح الفقه الإسلامي مما فيه من الواهي والمنكر وما لا أصل له، وما لا يصح للاستنباط أو للاستئناس، فمسيرة الفقه الإسلامي والحمد لله قوية متعاظمة متصاعدة، ولكن إفادتها من دراسات السنة لا تزال محدودة...

لقد انطلق عند المحدثين والعاملين في خدمة السنة باب في غاية الأهمية والنفع، ألا وهو التخريج، ويتناول مصنفات معتمدة في كل مذهب، لها من القبول والرواج والعناية الشيء الكثير، فيأخذ الأحاديث التي اعتمد عليها المصنف في استنباط الأحكام، ويبينها من حيث الصناعة الحديثية بتفصيل وينتهي إلى ما يصح الاعتماد عليه في الأحكام أو ما لا يصح، وكان في هذا الباب كتب عظيمة ذات وزن وتأثير،ولعل أول من نبه إلى هذه المسألة الهامة حسب ما يحضرني هو الإمام الحافظ الكبير أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى ٤٥٨ هـ، وذلك حين اطلع على ثلاثة أجزاء من كتاب معاصره أبي محمد الجويني، والد إمام الحرمين المتوفى ٤٣٨هـ، المسمى: المحيط، ووقع فيه على أحاديث غير صحيحة، ومنها الواهي وشديد الضعف...

فكتب له رسالة قال فيها[1]: ثم إن بعض أصحاب الشيخ أدام الله عزه وقع إلى هذه الناحية فعرض علي أجزاء ثلاثة مما أملاه من كتابه المسمى بالمحيط، فسررت به، ورجوت أن يكون الأمر فيما يوردون الأخبار على طريقة من مضى من الأئمة الكبار لائقا بما خص به من علم الأصل والفرع، موافقاً لما ميِّز به من فضل العلم والورع، فإذا أول حديث وقع عليه بصري

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨٣-٥/٧٧.

الحديث المرفوع في النهي عن الاغتسال بالماء المشمس، فقلت في نفسي: يورده ثم يضعفه، أو يصحح القول فيه، فرأيته قد أملى...

إلى أن قال: وعندي أن من سلك من الفقهاء هذه الطريقة في المساهلة أنكر عليه قوله،مع كثرة ما روي من الأحاديث في خلافه، فسبيله أدام الله توفيقه علي في مثل هذه الأحاديث: (روى عن فلان) ولا يقول: (روى فلان) لئلا يكون شاهدا على فلان بروايته من غير ثبت، هو إن فعل ذلك وجد نفسه متبعاً.

فقد أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: سمعت أبا الوليد الفقيه يقول: لما سمع أبو عثمان الحيري من أبي جعفر بن حمدان كتابه المخرج على كتاب مسلم كان يديم النظر فيه فكان إذا جلس للذكر يقول في بعض ما يذكر من الحديث: قال رسول الله ﷺ، ويقول في بعضه: روي عن رسول الله ﷺ، وأبو عثمان الحيري يحتاط في هذا النوع من الاحتياط فيما يدير من الأخبار في المواعظ، وفي فضائل الأعمال، فالذي يديرها في الفرض والنفل.

ويحتج بها في الحرام أوالحلال أولى بالاحتياط، وأحوج إليه...

وقد صدر الإمام البيهقي رحمه الله رسالته بعد الثناء على الجويني بقوله:

وقد علم الشيخ أدام الله توفيقه اشتغالي بالحديث، واجتهادي في طلبه، معظم مقصودي فيه في الابتداء: التمييز بين ما يصح الاحتجاج به من الأخبار، وبين ما لا يصح.

حتى رأيت المحدثين من أصحابنا يرسلونها في المسائل على ما يحضرهم من ألفاظها، من غير تمييز منهم بين صحيحها وسقيمها.

ثم إذا احتج عليهم بعض مخالفيهم، بحديث شق عليهم تأويله، أخذوا في تعليله مما وجدوه في كتب المتقدمين من أصحابنا تقليداً، ولو عرفوه معرفتهم لميزوا صحيح ما يوافق أقوالهم من سقيمه، ولأمسكوا عن كثير مما يحتجون به، وإن كان يطابق آراءهم، ولاقتدوا في ترك الاحتجاج برواية الضعفاء والمجهولين بإمامهم.

فشرطه فيمن يقبل خبره عند من يعتني بمعرفته مشهور، وهو بشرحه في كتاب (الرسالة) مسطور، وما ورد من الأخبار بضعف روايته، أو انقطاع سنده كثير، والعلم على من جاهد فيه سهل يسير، . . . إلخ.

ولعل البيهقي كان له موقف سبق عظيم في هذا الميدان، إذ أخذ مختصر المزني الذي رتب فيه كلام الشافعي ودعمه، أو يمكن القول بأنه شرحه بالحديث والسنن والآثار، ودلل عليه بذلك في كتابه السنن الكبرى، ومعرفة السنن والآثار.

ولعلها أهم محاولة وصلتنا لبناء الفقه على الحديث، ولبيان القوي من الأقوال، والضعيف بناء على هذا الأصل المتفق عليه.

وكان هناك محاولة عاصرتها، وهي محاولة ابن حزم الأندلسي المتوفى ٤٥٦هـ، إذ شرح مختصره الفقهي الذي سماه (المجلى) بالنصوص الصحيحة والآثار، متنكبا القياس وضعيف الروايات، والأخبار كما يقول في كتابه (المحلى) وقد بين في خطته في صدره فقال: رغبتم أن نعمل للمسائل المختصرة التي جمعناها في كتابنا الموسوم بالمجلى شرحا مختصراً، نقتصر فيه على قواعد البراهين بغير إكثار، ليكون مأخذه سهلا على الطالب والمبتدئ، ودرجا إلى التبحر في الحجاج، ومعرفة الاختلاف، وتصحيح الدلائل المؤدية إلى معرفة الحق مما تنازع الناس فيه، والإشراف على أحكام القرآن، والوقوف على جمهرة السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ وتمييزها مما لم يصح، والوقوف على الثقات من رواة الأخبار، وتمييزهم من غيرهم. . . وليعلم من قرأ كتابنا أننا لم نحتج إلا بخبر صحيح، من رواية الثقات مسند، ولا خالفنا إلا خبرا ضعيفا فبينا ضعفه، أو منسوخا فأوضحنا نسخه. .[1].

وقد خالف ابن حزم مخالفون، وعارضه في أحكامه الحديثية والفقهية معارضون، ولكن عمله من بناء الفقه على الحديث والسنة مع آي الكتاب،

---

(١) المحلى ١/٢.

محاولة رائدة تستحق أن تؤثر وتتبع، مع وضع الضوابط والقواعد الراسخة الواضحة لتكون معالم هادية في طريق تجديد الفقه وبعثه.

وقد سلف قبل هذين الإمامين في هذا الميدان الإمام العلم أبو جعفر أحمد بن سلامة الطحاوي المتوفى ٣٢١هـ، في كتابه شرح معاني الآثار، وعنوانه ينبئك عن مضمونه، ولنا معه وقفة في غير هذا الموضع.

وقد فتح البيهقي باب تنقيح كتب الفقه المذهبية، وبيان ما فيها من نصوص في ميزان المحدثين، فتلاه الحافظ أبو بكر بن موسى الحازمي المتوفى ٥٨٤هـ في تخريجه لكتاب المهذب للشيرازي في فقه الشافعية، وغير ذلك من المصنفات التي بدأت تتكاثر في هذا الباب بعده؛ ككتاب نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية، للحافظ جمال الدين الزيلعي المتوفى ٧٦٢هـ، والهداية من أجل كتب الفقه الحنفي، ألفه برهان الدين علي بن أبي بكر الفرغاني المتوفى ٥٩٣هـ.

ومثله: البدر المنير في تخريج الشرح الكبير لابن الملقن أبي حفص عمر بن علي بن أحمد المتوفى ٨٠٤هـ، والشرح الكبير وهو فتح العزيز شرح الوجيز للإمام أبي القاسم عبدالكريم الرافعي المتوفى ٦٢٣هـ، والوجيز كتاب للإمام أبي حامد الغزالي المتوفى ٥٠٥هـ في الفقه الشافعي.

وكذلك مختصره المسمى: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير للحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٢هـ.

وهذا التوجه الذي ركز على أهم كتب الفقه الإسلامي وبيان مواطن الاستدلال الضعيفة في الفقه الإسلامي، كان الغرض منه تنقيح كتب الفقه الإسلامي من كل نقاط الضعف ونفضها من ذلك، وإعادة الفقهاء والمتشرعين إلى صحيح السنة وقويها، وفي هذا يقول الحافظ أبو حفص ابن الملقن الشافعي في صدر كتابه البدر المنير[1]: (لكنه - أي الإمام الرافعي -

---

(١) انظر البدر المنير ١/٣١٠.

أجزل الله مثوبته. مشى في هذا الشرح المذكور على طريقة الفقهاء الخلَّص في ذكر الأحاديث الضعيفة والموضوعات، والمنكرة والواهيات، وهي التي لا تعرف أصلاً في كتاب حديث، لا قديم ولا حديث، في معرض الاستدلال من غير بيان ضعيف من صحيح، وسليم من جريح).

وقال قبل ذلك: اتفاق أهل الحل والعقد على أن شرط المجتهد من القاضي والمفتي، أن يكون عالما بأحاديث الأحكام ليعرف بها الحلال والحرام، والخاص من العام، والمطلق من المقيد، والناسخ من المنسوخ في شبه ذلك[1].

ويقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في صدر كتابه التلخيص الحبير[2]: وأرجو إن تم هذا التتبع أن يكون حاويا لجل ما يستدل به الفقهاء في مصنفاتهم في الفروع، وهذا مقصد جليل.

وقد امتد هذا التنقيح والتصفية والتصحيح إلى ميادين أخرى غير الفقه، في طليعتها علم الأصول، وإشادة بنائه وتفسير الكتاب العزيز، ولهذا كانت كتب التخريج لكتب الأصول متساوقة مع كتب الفقه في هذا نجد عددا غير قليل من تخريجات كتب الأصول بدأت مبكرا، ومن آخرها كتاب شيخنا السيد عبد الله بن الصديق الغماري: تخريج أحاديث اللمع لأبي إسحاق الشيرازي وهو مطبوع متداول.

ومع هذه الجهود النيرة والأعمال الباهرة المتكاثرة، نجد أن أثرها في الفقه المعاصر محدود، بل لو قال قائل إنه غير موجود لكان لكلامه قسط كبير من الصحة، إذ إننا لو تفحصنا كتب الفقه التي تؤلف حديثا لوجدنا جلها لا تختلف عن الكتب السالفة مثل الهداية والمهذب وما يتبعها من مصنفات فقهية، وقد أحزنني أن أرى كتابا جليلا في الفقه، بل هو أوسع كتاب صدر في العصر الحاضر، وقد اشتغل فيه باحثون كثيرون، وأنشئت له مؤسسة واسعة، وأنفقت فيه جهود وأموال طائلة ألا وهو: (الموسوعة

---

(١) انظر البدر المنير ١/٢٠٤.

(٢) انظر التلخيص الحبير ١/٩.

الفقهية) التي تصدرها وزارة الأوقاف بالكويت، وقد استمر العمل فيها عقوداً متطاولة من السنين، ويصدر في ثناياه الكثير من الأحاديث الضعيفة والواهية أو التي ذكرها الفقهاء ولا وجود لها في كتب الحديث القديم والحديث كما يقول ابن الملقن، ولا يكفي أن نقول في حاشية الكتاب عن الحديث: إننا لم نجده، بل يجب حذفه، وما انبنى عليه من أحكام شرعية، ولو كانت ندبا أو استحباباً أو كراهة... وكلها أحكام تشريعية.

وكذلك وجدت بعض الكتب الفقهية التي ألفها فقهاء معروفون، ومنها كتب سائرة، ولكنها أودعت أحاديث واهية وضعيفة ومنكرة كأي كتاب ألف قبل قرون في عصور الضعف وجمود الفقه، وهذا يدل على انقطاع أو شبه انقطاع بين هذه الحركة الحديثية المباركة، وبين الحركة الفقهية التي يتوجب عليها الاستفادة القصوى من عطاءات السنة المباركة، وجهود الباحثين فيها لتكوين نهضة معرفية إسلامية صحيحة إن شاء الله.

وكأن الأمر قد عاد إلى الوراء إلى زمن أبي سليمان الخطابي المتوفى ٣٨٨هـ، حين صور ذلك في صدر كتابه معالم السنن فقال[١]: ورأيت أهل العلم في زمننا، قد حصلوا حزبين، وانقسموا إلى فرقتين: أصحاب حديث وأثر، وأهل فقه ونظر، وكل واحدة لا تتميز عن أختها في الحاجة، ولا تستغني عنها في درك ما تنحوه من البغية والإرادة.

لأن الحديث بمنزلة الأساس الذي هو الأصل، والفقه بمنزلة البناء الذي هو كفرع، وكل بناء لم يوضع على قاعدة وعلى أساس فهو منهار، وكل أساس خلا من بناء وعمارة فهو قفر وخراب.

ووجدت هذين الفريقين على ما بينهم من التداني في المحلين، والتقارب في المنزلتين، وعموم الحاجة إلى بعض، وشمول الفاقة اللازمة لكل منهم، إلى صاحبه إخوانا متهاجرين، وعلى سبيل الحق بلزوم التناصر والتعاون غير متظاهرين...

---

(١) معالم السنن ٣-١/٤.

فأما الطبقة الذين هم أهل الأثر والحديث، فإن الأكثرين منهم، إنما وكدهم جمع الروايات... وأما الطبقة الأخرى، وهم أهل الفقه والنظر، فإن أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على أقله، ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه، ولا جيده من رديئه، ولا يعبؤون بما بلغهم منه أن يحتجوا على خصومهم إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونها، ووافق آراءهم التي يعتقدونها، وقد اصطلحوا على مواضعة بينهم في قبول الخبر الضعيف، والحديث المنقطع، إذا كان ذلك قد اشتهر عندهم، وتعاورته الألسنة فيما بينهم من غير ثبت فيه، أو يقين علم به، فكان ذلك ضَلَّةً من الرأي، وغَبناً فيه...

وإذا بقينا ندور في فلك الجمع بين السليم والسقيم، فلن يكون هناك أثر للدراسات الحديثية، وستبقي هذه الدراسات تدور حول نفسها في أهم حقل وميدان لها، ألا وهو ميدان الفقه والتشريع، ولابد من وقفة طويلة عميقة في هذه المسألة، وعقد صلة حقيقية بين الدراسات الحديثية والفقه والتشريع.

٢- لما كان القرآن الكريم والسنة النبوية فيهما المنهج السوي، والمشرع الرضي لشؤون الحياة خاصة وعامة، ترى لزاما أن تكون هناك دراسات أصيلة تقوم على الكتاب والسنة في جوانب الحياة المتجددة، في الأخلاق، والمجتمع والاقتصاد، والسياسية، والطفولة، والمرأة والتربية، وعلم النفس، والعلاقات الإنسانية والدولية... وتكون قائمة أساسا على آي الكتاب العزيز، وصحيح السنة وحسنها، وما يصلح للاعتماد من الأحاديث النبوية الشريفة، ويكون هذا على طريقة فقهاء السنة الأقدمين، وليس على طريق الفقهاء المذهبيين.

وإن أخذت هذه الدراسات التي يمكن أن نطلق عليها بمصطلح عصرنا: الدراسات الحضارية، المنهج السديد، في نفي الواهيات والموضوعات، والشواذ والمنكرات، والضعاف غير المقبولة، مع الأخذ بضوابط الفهم السليم، وسنأتي إليها فستكون هذه الدراسات مرحلة جديدة

في ربط السنة بالحياة، وبعث روح الفقه الإسلامي، بل في تجديد الحياة الإسلامية كلها.

ولاشك أن هناك دراسات بدأت تشق طريقها في هذا الميدان، ولكنها تحتاج إلى شيء من التركيز والتعميق، والتوسعة.

وهنا نصل إلى أمر لابد أن يسير إلى جانب نصوص السنة النبوية، ويلازمها لما له من خطورة وتأثير، وبيان لها وتفسير ألا هو:

٣- إبراز القواعد والضوابط لفهم السنة النبوية-فهما صحيحا- وتجاوز الفهم السطحي البسيط الذي يقترب من فهم الأميين والعامة، هذه القواعد والضوابط التي كان يسلكها الأئمة من عصر التابعين إلى أن استقر في المكتبة الإسلامية علم اسمه (فقه السنة) بمؤلفاته المتميزة، وعناوينه البارزة، ومصادره الخاصة التي تداولتها حلق الدرس في المشرق والمغرب، وأصبحت مطمح أبصار الباحثين في كل مكان.

وعلى ضوء هذه القواعد والضوابط، كان تنقيح الفهم للإسلام عامة، والسنة النبوية خاصة يعتري الأمة فتنفض ما علق بالإسلام من غبار وأوضار، وتأكيداً لهذا الذي أقول ألفت نظر الباحث المنصف إلى الأئمة الكبار الذين وسموا بسيما التجديد للإسلام بناء على ما بينه النبي ﷺ أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها[1]. إن هؤلاء المجددين، والمتفق على تجديدهم هم الذين كانوا يعيدون للسنة النبوية مكانتها في النفوس، وحيويتها في المجتمع، ونضارتها في حلقات الدروس، ويعيدون الربط الحقيقي للمجتمع بها، وذلك بتأكيد وتجديد ضوابط الفهم وقواعد التأصيل، وإلا فالسنة كانت دائما موجودة سائرة، ولكن الفهم الصحيح لها هو الذي كان يتجدد في العقول والحنايا والضمائر.

وقد كانت عناية السلف الصالح رضوان الله عليهم في البحث عن هذه القواعد المؤصلة شديدة ودؤوبة، وكان أول أصولهم بعد تثبيت النص

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة رقم ٤٢٩١.

وتصحيحه أن يضعوه الموضع الصحيح، وهل هو ناسخ أو منسوخ، أو راجح أو مرجوح، وهل هو قوي أو أقوى، وهل هو على جهة المباح أو الأمر... ،ولذلك نجد أمثال الإمام الزهري حافظ التابعين يقول لهم[1]: كانوا يرون أن آخر الأمرين من رسول الله ﷺ هو الناسخ للأول.

ولشدة فحصهم عن ذلك وتنزيل النصوص منازلها، وتتبعهم لمواردها ومواطنها، كان يقول لهم كذلك ـ أي الزهري ـ[2]: أعيا الفقهاء، وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه، وقد كان إبراهيم النخعي مبرزا في هذا.

قال الشافعي رحمه الله تعالى[3]: وفي الحديث ناسخ ومنسوخ... ولا يستدل على الناسخ والمنسوخ إلا بخبر عن رسول الله ﷺ، أو بقول أو بوقت يدل على أن أحدهما بعد الآخر، فيعلم أن الآخر هو الناسخ، أو بقول من سمع الحديث، أو بقول العامة أو بوجه آخر...

ومنها ما يكون اختلافاً في الفعل من جهة أن الأمرين مباحان، كاختلاف القيام والقعود، وكلاهما مباح... ومنها ما جاء جملة، وآخر مفسراً، وإذا جهل جعلت الجملة على أنها عامة عليه رويت بالشيء منه عاما تريد به الخاص، وهذان يستعملان معاً.

ويزيد الإمام الطحاوي الأمر إيضاحاً وإفصاحاً أمام أهل العلم فيقرر في صدر كتاب شرح مشكل الآثار فيقول: وإني نظرت في الآثار المروية عنه ﷺ بالأسانيد المقبولة التي نقلها ذو التثبت فيها، والأمانة عليها، وحسن الأداء عليها، فوجدت فيها أشياء مما يسقط معرفتها والعلم بها عن أكثر الناس، فمال قلبي إلى تأملها، وتبيان ما قدرت عليه من مشكلها، ومن استخراج الأحكام التي فيها، ومن نفي الإحالات عنها... وما كان من

---

(١) انظر الناسخ والمنسوخ لابن شاهين ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٢) انظر الناسخ والمنسوخ لابن شاهين ص ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٣) انظر اختلاف الحديث ملحق بالأم ٨/٥٩٩.

الشافعي والطحاوي ومن سلك هذا المهيع الشريف، من وضع الضوابط والقواعد المؤصلة التي يستهدون بها لاستنباط الأحكام الشرعية هو الذي أعطى لهؤلاء الذكر الحسن، ولكتبهم القبول والإقبال، والانتشار والاهتبال، ولم يتركوا الباب مفتوحاً لكل مجازف جهول، أو لكل غافل غير مسؤول... وحرصا من السلف الصالح على ضبط هذا الباب، تنامت أعمالهم المباركة مع الأيام، وقطعت الطريق على كثير من العابثين والزائفين.

وللباحث المنقب أن يلاحظ أن كتب فقه السنة عبر العصور، **كان أصحابها من أهل الحديث المنتسبين إليه، ولكنهم أضافوا إليه معرفتهم بضوابط الاستنباط وقواعد الفهم، فجمعوا بين الفقه والحديث، وهو مطلب عزيز، وشرف عال، فعلا شأنهم، وغلا في سوق المعرفة فكرهم، وإنتاجهم وعطاؤهم**، وحري بالباحثين والدارسين حصر هذه الكتب، وهي كثيرة والتعريف بها وبأصحابها، وإشاعة ذكرها، وبعث مخطوطها لتكون نبراساً مضيئاً في طريق الأجيال القادمة إن شاء الله.

٤- حقيق بأهل السنة النبوية اليوم إحياء حلقات درسها في الأصقاع والربوع، في المساجد والبيوت، والربط والزوايا، في المدن والقرى... لتعم بركتها، وينبعث أثرها، ولقد كان الأوائل لهم في كل مدينة حلقات لإملائها، فكان مجدهم عاليا،وصرحهم غاليا، وكلما كانت الأمة تمر بمحن كانوا يجددون فيها حلقات السنة، ويذكرون رجالاتها، ويعرفون نقلتها وروادها، وهم نجوم الهداية، فتبعث في الأمة روح جديدة، وقوة فريدة فتهب عليها رياح الرخاء والهناء، والنصر والفلج على الأعداء الماديين والمعنويين.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى تحويل ساحة هذا العالم المضطرب المضطرم، المتعارك المزدحم، إلى ميدان فسيح لدراسة السنة النبوية، وإعلاء منارها، وإن كانت الأمة لا تخلو من خير، فما أحوجنا إلى توسيع دائرته، ومد رواقه وآفاقه!.

وما أحوج الأمة إلى تشجيع حلقات البحث والتدريب على السنة النبوية

ومصادرها ومسالكها، وطريقة تخريجها، وتطوير المسالك الرشيدة للتعامل معها في دورات علمية أكاديمية تحتضنها مراكز مرموقة، وبنخبة راسخة موثوقة، لنتجاوز الغلو والإسراف، أو الجمود على الرأي أو التطرف به والانحراف، ولنزيح من طريق السنة ما تراكم فيه ويمنع انسيابها، وباسمها من تشويه وعبث من محب جهول، أو عدو دؤوب صؤول. . .

إن الدورات التدريبية اليوم في المعرفة في أنواعها المختلفة، وتتابع هذه الدورات قد غدا جزءاً من المعرفة وارتفاع شأنها واستمرار مسيرتها، أفليست السنة النبوية حقيقة بهذا وأكثر منه؟!!

أليست حرية بأن تبذل في سبيلها المهج والأرواح وما دون ذلك من كل غالٍ ونفيس لتكوين أجيال تعيد الأمر إلى نصابه، وترجع عصر السنة النبوية- وهي قاعدة المعرفة- إلى فتوته وشبابه؟!!

إنها حقيقة بذلك وزيادة، والأمر يحتاج إلى تنسيق الجهود، وضبط الإمكانيات وتصرفات الراشدين الحكماء، ولو حصلت هناك بعض ثغرات فيمكن تجاوزها مع الأيام إن صحت العزائم وصلحت النيات.

٥- إن هناك عوادي متكاثرة، أثرت في عدوانها على السنة النبوية، وأساءت جراء ذلك إلى هذه الأمة كلها، ولها رؤوس مختلفة، ويمكن تصنيفها إلى عدة شعب:

أ ـ العدوان على كتب السنة بطبعها بأنواع الطباعة قديمها وحديثها، مشوهة مبتورة، ويدخل في ذلك الدس فيها مما ليس منها، إما بعناوين أو إضافات أو شروحات، وتدخل في النصوص، فالناشئون الأغرار يعتقدون أن ذلك من السنة، أو من المصنفين الأوائل فيها، هذه إساءة بليغة، وعلى توالي الأيام يمكن أن تزاح هذه الإشارات الباهتة البسيطة التي يختبئ بها واضعوها، وتدمج في النصوص، فتفقد الثقة بهذه الكتب قيمتها، وتصبح محل شك كبير، واضطراب خطير، وأس المسألة بسيط يمكن تفاديه بوقوف كل واحد من أهل العلم عند حدِّه. .

ب ـ ويدخل في هذا الغيض المتكاثر من تخريجات هذه الكتب بشكل

يعلن عن الجهل بل والعناد، كمن يأتي لكتاب جليل، ويخرج أحاديثه ويحيل إلى مجموعة من الكتب ليست من هذا المهيع بسبيل عنوانا للتكثر، ويقيني أن فاعل ذلك داخل في قول المصطفى عليه الصلاة والسلام المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور[1].

ولأنبه إلى هذه الطائفة غير قليلة العدد، وهي كثيرة الوسائل والعدد، والعدوان على هذا الميدان بمثال: فهم يحيلون في تخريجاتهم إلى: إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين، وإلى الموضوعات لابن الجوزي، والعلل المتناهية، ومجمع الزوائد، وكنز العمال، وكشف الخفا للعجلوني، واللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، والدر المنثور، والشفا، وتفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير، ومشكاة المصابيح، والأمالي لابن الشجري، والأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة للقاري، والبداية والنهاية لابن كثير، فتجد بعضاً من هذه الكتب مصادر للتخريج، بجانب الصحيحين، والسنن والمسانيد، وغيرها من مصادر السنة، وهذا خطل في الرأي، وجهل عظيم.

ويضاف إلى هذا من يخرج حديثا وهو في الصحيحين أو السنن، أو الكتب الستة فيجعل تخريجه في صفحات متوالية تكثراً وتسويداً للورق، ومعلوم عند طلاب العلم المبتدئين أن للتخريج أصوله، وقواعده وضوابطه، درج عليه الأئمة منذ قرون، وتوارثوه مع الأيام، فإذا تعداه الإنسان نظروا إليه باشمئزاز واستهجان.

وأنقل هنا تبصرة وتذكرة نصاً جليا لأحد أئمة التخريج، وهو ابن الملقن المتوفى ٨٠٤هـ، إذ قال رحمه الله[2]: فإن كان الحديث أو الأثر في صحيحي الإمامين، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وأبي مسلم بن الحجاج القشيري، أو أحدهما، اكتفيت بعزوه إليهما، أو إليه، ولا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

(٢) انظر البدر المنير في تخريج أحاديث الشرح الكبير ١/٣١٨.

أعرج على من رواه غيرهما من باقي أصحاب الكتب الستة والمسانيد، والصحاح لأنه لا فائدة في الإطالة بذلك.

وإن لم يكن الحديث في واحد من الصحيحين، عزوته إلى من أخرجه من الأئمة كمالك في موطئه، والشافعي في الأم، ومسنده الذي جمع من حديثه، وسننه التي رواها الطحاوي عن المزني، وسننه التي رواها أبو عبد الله محمد بن الحكم عنه، وأحمد في مسنده، وعبد الله بن وهب في موطئه، وأبي داود في سننه، وأبي عيسى الترمذي في جامعه، وأبي عبدالرحمن النسائي في سننه الكبير والصغير المسمى بالمجتبى، وأبي عبد الله بن ماجه القزويني في سننه، وأبي عوانة في صحيحه، وإمام الأئمة محمد بن إسحاق في القطعة التي وقفت عليها من صحيحه، وأبي حاتم بن حبان في صحيحه المسمى بالتقاسيم والأنواع، وفي كتابه وصف الصلاة بالسنن، وأبي بكر الإسماعيلي في صحيحه، وأبي عبد الله الحاكم في المستدرك على الصحيح... إلخ.

وهكذا يكشف عن طريقته في التخريج من أهم الكتب وأقدمها، ولا يذكر ما هو تكرار إلا لإضافة فائدة، تعود على القارئ بصلة زائدة، أما هذا الحشو والإطالة، والخبط والخلط، فإنه والله شوه كثيراً من الكتب التي تخرج نصوصها بهذه الكيفية.

وصنو هذا العمل من يتكلم عن الرجال، فينقل الصفحات الطوال، ويخبط في تراجم المحدثين ظاناً أن تكثير الصفحات، وتكبير الكتيبات إلى مجلدات يضع صاحب هذا العمل في عليا المقامات، وهيهات هيهات، فما ذلك إلا اعتداء على العلم وطرائقه ومنهج أهله الذين كانوا يقتصدون حتى بالكلمات..!!

وقد دخل في هذا الميدان نفر ليسوا من أهله، بل هم من تخصصات أخرى، تارة بضاعتهم من الأدب وشؤونه، وتارة من التاريخ وفنونه، وتارة من الطب وأحزانه وهمومه. فأساءوا من حيث شاءوا أم لم يشاءوا، وظنوا وظن معهم نفر من الناس أنهم قد أحسنوا وأجادوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٣- ومن أهم العوادي حملات التشكيك والطعن في السنة النبوية، ثبوتا ونقلا وحجية، وتعدوها اليوم إلى التملص من مضامينها تحت أسماء كثيرة وعديدة، تارة باسم اجتهاد الرسول ﷺ، وتارة باسم تصرفاته بالإمامة، أو بالمصلحة، أو... وتارة باسم التفسير العلمي والتجديد... إلخ.

وإن الناظر في هذه الحملات سواء كانت من ديار المسلمين، أو كانت من تخرصات المستشرقين يجد أن أكثرها تكرار وترداد، لما كان في الماضي الذي بدأ مع الترجمة والأفكار الوافدة، في القرن الثاني للهجرة، وقد لخص الإمام الشافعي في مصنفاته، وعلى وجه الخصوص (الرسالة) و(جماع العلم) جل ما كان يروج في عصره، وهو يناظرهم، ويسمع دعواهم، وقد تبعه على هذا النهج آخرون من هداة هذه الأمة، فكلما نبغت شبهة، وأطلت فتنة وجدت من يرد عليها ويقمع رؤوسها، وكان ذلك بفضل الله تعالى عبر العصور، يأخذون كلام الخصوم بأمانة ويدمغونه بالحجة.

وخذ على سبيل المثال ما سطره الإمام ابن قتيبة الدينوري في كتابه: تأويل مختلف الحديث، مصدراً بقوله: وأعدت ما ذكرت في كتبي من هذه الأحاديث ليكون الكتاب جامعاً للفن الذي قصدوا الطعن به، وتوقف قبل ذكر الأحاديث، وكشف معانيها، وصف أصحاب الكلام، وأصحاب الحديث بما أعرف به كل فريق.

وأرجو ألاّ يطلع ذو نهى مني على تعمد لتمويه، ولا إيثار لهوى، ولا ظلم لخصم...[1].

ثم تتبع فرق الطاعنين في الحديث كلا أو بعضاً، وبين طعن كل فريق بإيجاز وتركيز، فبدأ بذكر الفرق ثم بأصحاب الكلام والفلسفة، كأبي هذيل العلاف، والنظام والنجار، وهشام بن الحكم، وثمامة بن أشرس ومويس... وغيرهم، وذكر أصول انحرافاتهم في الأسماء والصفات، ثم

---

(١) انظر كتاب تأويل مختلف الحديث ص ١٢.

في الأحكام الشرعية والفقهيات، ثم طعنهم في الصحابة وما ادعوه عليهم من التناقض والخطأ، وردَّ عليهم ضلالاتهم بإحكام وإفحام، وما أنكروه من أن ثبوت الخبر لا يكون إلا بنقل العدد الكثير والجمع الغفير، بدءاً من اثنين وانتهاءً بسبعين أو يزيد،ثم أتبعهم بأصحاب الرأي ومجانبتهم للأحاديث والسنن، وما كان موقف السلف منهم، وخص بالذكر الإمام الحافظ إسحاق بن راهويه المتوفى ٢٣٤هـ.

ثم ذكر اعتراضات الرافضة على السنة وأمثلة من تفاسيرهم العجيبة للقرآن الكريم، ثم ذكر أصحاب الحديث، وما تجشموه في طلب الآثار والأخبار، والبحث عنها، ومعرفة صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، وكشف عن مخالفها من أصحاب الرأي.

وذكر ما يعيبهم به الطاعنون من حمل الضعيف والغريب والموضوع، وما قد ينساه بعضهم من الحديث بعد تحديثه به، أو ما يحصل لبعضهم من التصحيف واللحن، وحمل الغلط والمتناقض... إلخ.

فكشف عن عوار هذه الاعتراضات، وأثبت أنها من المغالطات، ونثر في كتابه الكثير، وأقول: إن من تأمل ما ذكره الإمام الشافعي في كتبه من الرد على الطاعنين في السنة وشبههم، وما ذكره ابن قتيبة، يجد أن هذه الاعتراضات تتكرر عبر العصور، حتى عصرنا الحاضر الذي بدأت فيه سهام التشكيك في الإسلام عامة وفي السنة خاصة، فكانت من أسباب هذه النهضة القوية والحمد لله إذ حركت الهمم وعبأت العزائم للدفاع عن السنة ونصرتها.

وقد عرف المسلمون التشكيك في العالم العربي بأقلام إسلامية قبل أن يعرفوه من المستشرقين، وبدأ ذلك مع الشيخ محمد عبده، ثم رشيد رضا الذي كانت مواقفه مضطربة، وفيها الكثير الذي لا يوافقه عليه أهل الحديث، بل جمهور أهل السنة والجماعة[1] ومن ذلك أنه يقصب أي راو

---

(١) انظر في بيان مواقفه وتفصيلها وتتبعها، كتاب موقف المدرسة العقلية من الحديث النبوي الشريف، دراسة تطبيقية عن تفسير المنار، تأليف شفيق بن عبد الله شقير ط المكتب الإسلامي ١٩٩٨م.

مهما قال فيه أئمة الحديث من ألفاظ العدالة والثقة، إذا جاء بحديث أو أحاديث تعترض هواه وإصلاحه المزعوم؛ كطعنه في عبدالرزاق الصنعاني، ووهب بن منبه، وهمام بن منبه وغيرهما، وهذا يجره إلى الطعن في مصادر حديثية لها وزنها الذي لا يقتحم حماها كالصحيحين، وغيرهما من كتب الحديث.

ويصل به الأمر إلى قصر عدالة الصحابة على بعض دون بعض، ولم يدخر وسعاً في الانتقاء من الأحاديث واستبعاد بعض منها باسم حديث الآحاد، وعدم حجيته.

ورد عدداً من المتون التي بلغ بعضها حد التواتر، ومنها أحاديث اعتقادية، ومنها أحاديث من أشراط الساعة، وأحاديث المهدي، وأحاديث انشقاق القمر، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وغير ذلك، ورجوعه إلى التعسف في تأويل عدد غير قليل من النصوص الحديثية.

وعلى النهج نفسه سار عدد من المعاصرين، وتعلقوا بكلام الشيخ رضا وشيخه الشيخ محمد عبده وقد انبثت أفكارهما في المعاصرين، وتعلق بهما في معاداة السنة والحديث أبو رية وجميع العلمانيين، وبعض ذوي النيات الحسنة المجازفين...

ولو أجريت مقارنة بين حملات السابقين والمعاصرين، لوجدت أن المعاصرين يتلقفون كلام السابقين ويتشبعون به وينسبونه إلى أنفسهم، لأنه وافق هواهم، وناسب مسعاهم.

وقد صدرت والحمد لله من المعاصرين كتب جليلة وحفيلة في الرد على من زاغ أو انحرف، ومن أساء القول في السنة النبوية أو في بعض قضاياها وانجرف جزاهم الله كل خير.

والميدان يتسع للمزيد نظرا لكثرة المحاربين للسنة في العقد الأخير من السنين.

وهنا يمكن القول: **إنه لجدير بأهل السنة والحديث أن يصنفوا -**

فرادى أو مجتمعين-موسوعة خاصة تشمل كل هذه الاعتراضات والتشكيكات- كما هي- ويرتبوها حسب ظهورها مع بيان أسبابها، ومن باء بإثمها، ويذكروا من رد عليها من العلماء حسب العصور، مع تلخيص هذه الردود، ودمجها وترتيبها بمنهج ميسر موثق، مع مقدمة جامعة في تاريخ السنة ونقلها في القرن الأول والثاني لتكون مرجعاً ينهل منه كل محبي السنة، وكل من أراد أن يعرف الحقيقة، ويوضع بين يدي الباحثين، وإذا أمكن ترجمتها إلى اللغات العالمية، فستكون خدمة عظيمة للسنة النبوية، وللأمة الإسلامية جمعاء، بل خدمة للإنسانية في حالتها المترنحة التي تحياها- وتبحث عن طريق للخلاص، ولن يكون الخلاص إلا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

وفي الختام أقول: إن هذه أفكار لعلها تراود الكثيرين، ولعل عند بعضهم مزيدا عليها نافعا ومفيدا، دونتها تذكرة لنفسي وتبصرة لمحبي السنة النبوية الشريفة والغيورين عليها.

وإني لعلى يقين أنَّ الله الذي حفظ الكتاب، وحفظ معه السنة الشريفة؛ لتتم الحجة على الخلائق، سيهيئ لها رجالاً وأجيالاً تحفظ آثارها، وتنقل أسفارها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأن السنة منهج للسعادة وطريق للأمن.

وقد روينا بالسند المتصل إلى العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فأوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم، فإن من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة[1].

---

(١) أخرجه أبو داود، والترمذي وقال: حسن صحيح، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه وأحمد في مسنده وغيرهم.

وعنه ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك[1].

اللَّهم إنا نسألك أن تجعلنا من حملة كتابك وسنة نبيك العاملين بهما الذابين عنهما الداعين إليهما القائمين عليهما، ياقريب يا مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بإسناد حسن.